

على الفكر الإسلامي أن يتحرر

من سارتر وفرويد ودوركايم

أنور الجندي

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

استطاع فرويد أن يخدع الفكر البشرى أكثر من سبعين عاما قبل أن تكتشف هويته . وبالرغم مما أوردته بروتوكولات صهيون من اشارة الى انه — هو وماركس — من مخططات اليهودية العالمية ، فقد ظل كثير من الرازحين تحت أحمال التبعية الفكرية الوافدة ينظرون اليه فى تقدير كبير وخاصة أولئك الذين احترفوا تدريس مادة علم النفس فى الجامعات أو الذين وجهوا الى ترديد مفاهيمها فى الصحف والمجلات ، وفى البـــلاد العربيـــة كان سلامة موسى فى مقدمة من دعا الى هذا الفكر وظل يكتب عنه يوما بعد يوم لا على انه نظريات أو فروض وانما على أنه حقائق علمية وصلت مكان الكمال المطلق وجرت على الألسنة كلمات : مركب النقص والعقل الباطن وغيرها من مصطلحات حتى جاء الوقت الذى استطاع علماء النفس انفسهم أن يضعوا الحقـــائق كاملة بين ايدى المثقفين والباحثين عندما أعلن المتخصصون منهم ان ما أورده فرويد من أصـــول لنظريتـــه جرت مجرى العلم الصحيح ما هى الا أصول الفلسفة التلمودية الصهيونية اليهودية مجددة ومصاغة فى قالب علمى براق استطاع أن يخدع الكثيرين وقد كشف الدكتور صبرى جرجس فى كتابه (التراث التلمودى الفرويدى) عن هذه المؤامرة الخادعة ، اما سلامة موسى

فلم يكن عالما متخصصا بقدر ما كان مروجا للفكر الغربى الصهيونى فى عشرات من النظريات والأفكار التى دعا اليها ورددها فى مؤلفاته (وسوف يأتى الوقت الذى نحصى هذه الشبهات) بل ان الدكتور صبرى جرجس بوصفه مسيحيا — يرى مدى الخطر الذى يحيط بعقيدته من جراء استسلامه لزيوف الفكر التلمودى اليهودى الذى قام أساسا لضرب المسيحية الغربية وتدميرها والذى استغل كلمات (نيتشة) ورينان وأوجست وماركس وفرويد وسارتر ضد الدين والتى كانت موجهة أساسا الى المسيحية الغربية وحدها باعتبارها « الموقف » العقلى لمرحلة من الفكر الغربى ازاء العقيدة القائمة فى مجتمعه . ومن هنا كانت حملة الدكتور صبرى جرجس الذى لم يكن يكتشف هذا الخطر لولا أن بعض مؤرخى اليهود أعلنوا أن فكر فرويد هو من صميم مذهبهم التلمودى الذى يقوم على أساس اثارة روح التحلل والفساد والجريمة والاباحية بين الأميين تمهيدا لتدميرهم ، بل ان هناك فى حياة فرويد نفسه ما يوحى بأنه كان صديقا (لهرتزل) الذى حمل لواء الدعوة الى الصهيونية والذى كان على رأس مجموعة الحاخامات الثلاثمائة فى بازل عام ١٨٩٢ ومعهم صحائف (بروتوكولات صهيون) التى أشارت الى هذا المخطط والتى لا يزال كثير من الذين يكتبون بالعربية يدافعون عن الصهيونية وينفون نسبة هذه البروتوكولات اليها (ولا ريب أن كل دعاة الفصل بين اليهودية والصهيونية

وهؤلاء المدافعين باســـم التحقيق العلمى المضلل انمـــا هم من اتبـــاع الماركسية التى هى وليـــدة الصهيونية اساسا والتى تحاول أن تحافظ على هذه العلاقة السرية) .

ولقـــد كان علينـــا نحن العـــرب والمسلمين أن نتحرر من مفاهيم فرويد الذى لم يتوقف عنـــد التحليـــل النفسى (وله فيه آراء صائبة مستمدة من الفكر الاسلامى أساسا) ولكنه مضى حتى وضع ايدلوجية كاملة شملت الأدب والفن والمجتمع والعقائد جميعا ، وحاولت فى اهم ما رمت اليه الى التركيز على الفصل بين الاعتقاد والعمل ، أو بين العلم والسلوك وذلك بالقول بأنه هناك عقل باطن منفصل عن العقل الظاهر ، وفى ذلك محاولة خطيرة للاخلال بحقيقة أساسية فى تكوين الانسان وهى الترابط بين المعرفة والارادة ، وتعد هذه النظرية ضربة موجهة الى الفطرة والى اليقين النفسى الذى جاءت به الأديان هذا بالاضافة الى مؤامرته تحت اسم الجنس ، ولعل هذا الاتجاه كله هو نتاج من التوزيع الدقيق للأدوار فى مسألة الصراع الفكرى ، فحيث كانت آراء ماركس فى اساسها من مخططات التلمودية اليهودية مصاغة فى قالب اقتصادى عصرى ، فان هنا يتمثل الجانب الاجتماعى وبذلك يسيطر الفكر اليهودى التلمودى على الفكر البشرى كله فى مجالات الاقتصـــاد والاجتماع والنفس والأخـــلاق ومنها يمتد الى الأدب والفن ولا يبقى شىء بعد ذلك صالحا لأن تقال فيه كلمة حق .

كل هذا الذى نقول يعد الآن من البديهيات التى ليست فى حاجة الى اعادة ، ولكنا نريد أن نرى الى أى حد واصل البحث طريقه فى الكشف عن زيف فرويد .

١ — هـذا كتاب جـديد تأليف بول روزن استاذ علم النفس بجامعة هارفارد تحت عنوان (قصة فرويد وتايزك) يزيح فيه فيكتور تايزك معاصر فرويد وأحد رواد علم النفس حقائق خطيرة .

ويكشف عن مدى أحقـاد فرويد التى ساقهـا حربا شعواء ضد هذا الباحث نتيجة غيرته منه ، وفى سبيل عرقلة جهـوده وأبحاثه فى حقـل علم النفس مما دفع به (دفع بتايزك) فى النهاية الى الانتحار باطلاق الرصاص على نفسه فى ٣ يوليو ١٩١٩ وكان قد رحل الى فينـا لدراسة علم النفس ، وقدر لأبحاثه الرواج والانتشار ، مما لفت نظر فرويد وقد كشف المؤلف عن غيرة وحسد فرويد من تايزك لنبوغه وأصالة أبحاثه ، حتى انه رفض معالجته عندما اشتدت أزمته النفسية وحين أوكل علاجه الى تلميذة فرويد (هيلبى ديتش) بل ان فرويد وصل الى حد تهديد تلميذته ومنعها من مساعدته مما دفعه فى نهاية الأمر الى نوع من اليأس القـاتل انتهى باطلاقه الرصاص على نفسه .

٢ — وفى فرنسا صـدر كتاب عن فرويد بقلم (لوس

ايرا جراى) التى تنتمى الى المدرسة الفرويدية ، والكتاب اسمه (المنظار الطبى للمراة الأخرى) وقد أحدث ضجة كبرى رغم ان مؤلفته قد طردت بسببه من الجامعة لاحظت المؤلفة أن فرويد عندما يتكلم عن المراة يضيع عقله ويشتد شريط تحليله ومنطقيته فهو يشعر دائما أنه السيد ، وهو عندما يتكلم عن المراة يتجه الى الرجال على اساس أن المراة لا يجب عليها معرفة شيء من امورها حين يناقش الرجال الموضوع وان مشكلة الأنوثة تهم الرجال ولكنه بالنسبة للمراة الموجودة معهم ، وترى المؤلفة أن المراة عند فرويد لغز عجز الرجال عن اكتشافه . وبذلك بقيت المراة بمثابة (الأرض الموحشة) فى علم النفس وتحاول المؤلفة ان تصل من هذا الى أن فرويد بالرغم من كل ما يحاول اعلانه من استقامة البحث لا يرى فى المراة كائنا انسانيا ، وانه لم يأت بجديد سوى أنه صقل تحاليل افلاطون ، وتقول المؤلفة أنه ربما كان فرويد مريضا ويعانى عقدة ازاء المراة . وتقول أن تحويل المراة الى لغز عند فرويد يعتبر سلبا لطابعها الانسانى وتحويلا لها الى شيء خارجى .

وعندنا ان رأى فرويد مستمد أيضا من مفهوم التلمود ، فهو يحاول أن يصورها على انها اداة جنسية للمتعة ، ولذلك فهو ينكر انسانيتها واستقلالها ويرى فيها رأى الفلسفات القديمة التى تحتقر المراة .

٤ — عالج فيلكس وجانارى فى كتابهما (اننى أوديب) نظريات فرويد واشارا الى أن فرويد هو مفتاح الامبراطورية البروسية ، وأن علم النفس التحليلى الذى أسسه هو علم القمع والكبت الذى تستغله الأنظمة الراسمالية فيما بعد . كما أشار بنيامين نيلسون فى كتابه فرويد والقرن العشرين الى أن فلسفة فرويد مادية صرفة ، تنكر الروحانية والحرية ، وانه يعد الحالات النفسية العليا كالالهام الشعرى والحب الصوفى مجرد تحويلات واقنعة للغريزة الجنسية .

وان رأى فرويد فى قصور الانســـان دون الوصـــول الى الكمال لم يستمده من المسيحية بل من دارون وأن فرويد قد اعتمد على أساطير قديمة كالمأساة اليونانية فى عقدة أوديب وعقـــدة الكترا والصراع بين ايروس اله الحب والحيـــاة وثاناسوس اله الموت ، وانه غارق فى فكرة الخطيئة الأولى .

ولا ريب أن هـــذه الحقائق التى لم يكتشفها الفـــكر الأوروبى الا أخيرا كانت واضحة فى عقل الباحثين المسلمين منذ اليوم الأول لنظرهم فى فكر فرويد ، بل ان كتاب الانسان بين المادية والاســـلام الذى كتبه مؤلفـــه فى ســـن باكرة وهو يدرس فى قسم الفلسفة وعلم النفس فى كلية الآداب ما زال حتى الآن بالرغم من مضى أكثر من ربع قرن على ظهوره واضح الدلالة فى عجز نظرية فرويد عن فهم النفس الانسانية ،

وان معطيات القرآن والسنة النبوية والفكر الاسلامى فى هذا المجال بالغة القوة والحيوية والصدق .

ولكن الفكر الغربى الذى لم يتنبه الا أخيرا لفساد نظرية فرويد يعرف أن اى نقد لها اليوم لا قيمة له لأنها قد تغلغلت تغلغلا كاملا فى كل اعمال الأدب والفن والقصة والمسرحية حتى لم يعد هناك تراجع فى اثر هذه النظرية التى أرادت تدمير الفكر الغربى المسيحى ورده الى الوثنيات والأساطير والخرافات .

ونحن نعرف أن فرويد حين بدأ مع (ادلرويونج) فى أوائل هـــذا القرن كان عنيفا فى فرض اتجاهه بالتفسير الجنسى الذى خالفه فيه صاحباه وانفصلا عنه كما اختلف مع جيمس حين التقى به فى أمريكا بعد ذلك ، وانه لم يبق معه الا اليهود : رانك وجونز وبريل .

ولكن اذا كان فرويد على خطأ ــ وهو على خطأ معارض للفطرة والعلم والعقل فى دعواه ــ فلماذا أتيح له هذا النفوذ الخطير وهذا الدوى المدوى ، لم يكن ذلك لوجه العلم وحده ، ولم يكن ذلك طبيعيا ، ولكنه كان بقوة من الدفع اليهودى الصهيونى المسيطر على النظريات والمذاهب ، القـــادر على فرض ما يشاء منها ومن قبل كان والاس قد سبق دارون وكان أقرب منه الى الفطرة والعلم الصحيح ومع ذلك فقد دوى

صوت دارون لأنه اتخذ منطلقا الى النظرية المادية والى فرض نظرية التطور الاجتماعى المطلق وكانت نظريته قاصرة على مجال البيولوجيا وحدها .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لفرويد مع أدلرويونج ، فقد قالا بأن العامل الجنسى ليس هو المصدر الأوحد للتصرف الانسانى ولكنه واحد من عوامل كثيرة منها تأكيد الذات ومركب النقص ، ولكن دعوى التحدى بالجنس وحده كمصدر لتصرفات الانسان هى التى شاعت وذاعت .

ونحن نجد النظرية تسقط اليوم سقوطا علميا شديدا ، ولكن اصحاب الفلسفة المادية يحاولون تمديدها بربطها بالماركسية من ناحية ، وبالدعوة الى ما يطلق عليه الثورة الجنسية وبربطها بالوجودية وهذا ما سنتحدث عنه بعد .

* * *

ثانيا — سارتر :

ان اى نظرية يتقدم بها فيلسوف أو مصلح تتمثل فيها حقائق هامة :

أولا : ان هذه النظرية هى فرضية افترضها هذا الفيلسوف بناء على نظرته الى الأمور .

ثانيا : انها نظرية تتصل اتصالا تاما بالتحديات الخاصة

بشخصية هذا الفيلسوف وبيئته وعصره ومجتمعه وظروف معينة قائمة .

ثالثا : ان الانسان على اعلى درجة من التفكير والنظر لا يستطيع أن يخرج عن ابعـــاد وجوده البشرى والعقلى والنفسى ولا يستطيع أن يشرع للمجتمع الانسانى كله .

ومن ثم فان كل ما يقدمه الفكر البشرى هو فرض يقبل الخطأ والصواب ، ويصلح لمجتمع ولا يصلح لآخر ، وينفع فى عصر ولا ينفع فى جميع العصور ، ولقد اعتورت النظريات والمناهج اســـباب القصـــور وحل بهـــا النقص واحتاجت الى الاضافة والحذف على مدى قريب من ظهورها وذهب بعضـــها وانطوى عجزا وفســـادا وليس ادل على ذلك من ناحية اخرى على نحو يوحى بانقاذ المراكب الغارقة ، العصر التى اضطربت وعجزت فى بيئاتها الخاصة واضطرت اصحابها الى تعديلهـــا بالاضافة والحـــذف ومحاولة الربط بين الوجودية والماركسية من ناحية وبين الفرويدية والماركسية من ناحية اخرى على نحو يومى بانقاذ المراكب الغارقة ، وعلى بعد ما بين الأيديولوجيات الثلاث من تناقض واختلاف .

ونحن نعـــرف أن الوجودية « صيحة أزمة » تعالت فى فرنسا بعد انهيارها فى الحرب العالمية الثانية حين هوت

تحت سنابك خيل الألمان صريعة الانحلال الخلقى . فجاءت الوجودية التى دعا اليها سارتر ليطلق للشباب أمر التهالك على الشهوات تحديا للخطر الماحق الذى يعيش تحته العالم ، وبعد أن افقدت الحرب أمم أوروبا زهرة شبابها التى تجاوزت المائة مليون . ولقد كانت وجودية سارتر وجودية ملحدة نابعة من الفكر المادى وان حاولت أن توجد للانسان منطلقا عاصفا حيث جردته من مسئوليته الفردية والزامه الأخلاقى واحالت ذلك كله على المجتمع .

ومن ثم انطلقت تلك الصورة المدمرة فى كل أنحاء العالم توحى بالتفكك والتحلل والتمزق والضياع . ولقد صدق جاك بيرك حين قال أن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الانسان أن يتخطاها ، وهى ليست روحا « وانا لا أستنتج منها نتيجة متشائمة بل واقعا يجب أن يعترف به » وهى فى تقديرنا علامة على دخول أزمة الانسان المعاصر فى مرحلة الانحدار ، ودخول أوروبا والغرب والفكر الغربى كله مرحلة التمزق الذى فرضته عليه الفلسفة المادية التى قادها فلاسفة اليهود التلموديين ، وان كانت لا تخلو من تمثل أخطر ما أطلقته التعبيرات المسيحية حول نظرية « الخطيئة الأصلية » ذلك السوط الذى ما زال يلهب ظهور الفريقين ويسوقهم الى الدمار النفسى .

ولا ريب أن فلسفة سارتر الوجودية الملحدة هى بديل

« الايمان » الذى عجز الغرب عن الحصول عليه عجزا مطلقا ، ولا ريب أن البشرية حين انطلقت لترسم لنفسها طريقا بعيدا عن طريق الله فانهـا ستظل تائهة فى مضارب الصحراء ، وما دام الانسان قد شرع لنفسه ورفض الأسس التى قدرها الحق تبارك وتعالى لينظم المجتمع البشرى فانه ليس هناك قواعد ما يمكن أن تفرق بين الحق والباطل ذلك لأن الانسان لا يمكن أن ينظم لنفسه ، واذا أراد ذلك تداخلت أهواؤه ومطامعه وشهواته ، وأصبحت الأمور كلها نسبية وليس لها ضوابط أو حدود أو قيم ثابتة راسخة تحاكم اليها ، أو ليس هناك من نقطة بداية ونقطة نهاية وانما يصبح الكون دائرا فى دوامة لا نهاية لها ولا غاية منها وقد جهل الانسان سر وجوده وهدفه فى الحيـاة ورسالته فى الأرض ومسئوليته وجزاءه وحسابه وتلك هى الحيرة التى تذوب فيها البشرية نفسها اليوم بعد أن خالفت عن منهج الله . ومن ثم تصبح حياة الانسان ليس لها طعم ، حيـاة القلق والتمزق والألم والاحساس بالغثيان والضياع ، ذلك انهـا فقدت المعنى الذى وضعه الحق تبارك وتعالى لها ، والذى هو سر الحياة نفسها ، الأمل والايمان والهدف والمسئولية والرسالة التى وجد الانسان من أجلها فى الحياة .

ان الوجودية تثور على مفاهيم سحق الانسان التى تقدمها الماركسية ولكنها مع الأسف تسحق قلب الانسان ولا تراه

الا من وجهة النظر المادية الصرفة : وهم حين ينكرون أن يصبح الانسان ترسا فى آلة ، يحيلونه الى شعور بالضياع والفراغ ، ويفرغونه من معناه الاجتماعى ويجعلونه أنانيــا لا هم له الا مطامعه التى تقوده اليها غرائزه كالحيوان فى الغابة .

ولا تزال الوجودية تدفع اهلها من قيد الى قيد ومن تمزق الى مزيد من التمزق نراه الآن فى الهيبية والخنافس .

وحين يقولون ان الوجودية تحرر الانسان نجد كتابات أهلها لا تحمل الا اليأس القائم : فهم يقولون عن أنفسهم انهم جيـــل بلا أمل ، بلا عمق ، بلا مستقبل وان عمقهم هو الهاوية ، وحبهم هو الوحشية ، وحياتهم علب من الورق فارغة وقابلة للتمزق ، وليست الوجودية الا تعبيرا عن هذا الهوان أين هذا من الاسلام الذى يقدم للبشرية الأمل وللنفس الانسانية السكينة والايمان ، حيث يرفض اليــأس والقلق والشك والحقد ، وهو لا يترك الناس صرعى فى أوهامهم ، ولكنه يقدم لهم الترياق ، يقدم لهم العون ، يطلب لهم المبررات ، ويفتح لهم الآفاق التى تخفف الشهوات ، ويحررهم من قيود الحيوان ، ويراوح بينهم دين السماء والروح والمعنويات ، هو لا يحرمهم رغائبهم الجسدية ولكنه يبنى فيهم الروح والعقل .

ان أخطر ما تقدمه الوجودية التشاؤم وهو طابع عام لكل معطيات الفكر الغربى البشرى ، الضال عن الايمان بالله والروح

والمعنويات . ان مصدر التشاؤم فى الفكر الغربى هو عدم الاقتناع العقلى لوراثة البشر جميعا لما يطلق عليه « الخطيئة الأصلية » هذه التى ينكرها الاسلام انكارا كاملا ولا يرى ان انسانا مسئولا عن خطأ الآخر ، الا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ..

ومن خلال ايديولوجية الخطيئة الأصلية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق فى الفكر الغربى نظرة « لا معقولية الحياة » وعبث الوجود ، ثم جاءت الوجودية لتكون أعلى مراتب التشاؤم .

وهذه كلها افكار غريبة عنا كل الغرابة مختلفة عن طوابع الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى ، ولا تتصل بسبب الى ثقافتنا او قيمنا او عقائدنا وهى توحى بأن الفكر الغربى والمجتمع الغربى يمر بمرحلة انهيار كامل يتمثل فى الأسرة والفكر والمجتمع . وان طوابع المادية الخالصة قد صرعته تماما ، وان انكاره للروح والدين والخلق والايمان بالله قد دمره تماما .

ولذلك فهى تبدو غريبة عنا دخيلة علينا متناقضة مع جوهر الانسان ، ومع فطرته واغرب ما فيها أنها حين تعتز بحق الفرد فى الوجود — وهو مفهوم اسلامى ، فانها تغطى عن أعظم معطيات الانسان والركن الركين فى وجوده على الأرض ولبس

المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى الذى يحاسب على أساسه ويقرر جزاؤه . ولا ريب أن افسادها يتمثل فى أنها ترى أن الانسان يكون نفسه مستقلا عن الدين والتقاليد والمجتمع ، وأن الزواج نظام عتيق ، وأن الطلاق لا يبقى بارادة الزوج فضلا عن انكارها « قوامة الرجل » ودعوتها الى حرية الصداقة ، واسقاط الدين كله من حساب الحياة . وهى لأنها تعارض الفطرة الانسانية لم تجد قدرة على البقاء وتساقطت جوانبها ، الا من تلك النزوات التى يقوم بها المنحرفون ولا ريب أن المفاهيم الوجودية كلها انما هى تعبير فكرى ونفسى وأخلاقى عن الفراغ الروحى المخيف .

ذلك أن رفض فكرة الالتزام ، وفكرة الرقيب النفسى « الضمير » وفكرة الفضيلة وفكرة الخير ، وفكرة الايثار وفكرة العدل وفكرة المسئولية انما تجرد الانسان من كل قدراته ومعطياته التى تجعله قادرا على اداء دوره الحق فى الحياة وان أخطر ما تدعو اليـــه الوجودية هو « أنانية » الفرد فى مواجهة المجتمع بانكار دوره فى العطاء والبذل والانفاق والعطاء للآخرين ، ومن فسادها قولهـــا أن الايثار يعنى أن يصبح الانسان مجرد أداة للآخرين ، بينما يدعو الاسلام الى أن الايمان هو انتقال الانسان من الأنانية الى الغيرية .

ولا ريب أن موقف سارتر من الالوهية موقف أشد عنفا وخطرا مما يقول به الملحـــدون أو المشركون ، فهو يضـــع

الذات الالهية فى مقام التزاحم مع الانسان وان وجود أحدهما يلغى وجود الآخر تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، والانسان ليس فى الحقيقة الا خلق الله وعبده وفضل من فيض فضله وعطائه .

واذا قيل أن الوجودية تحمل مفهوم الحرية ، فانما هى الحرية بمفهوم تحرير الانسان من مسئوليته واطلاق أهوائه الى أبعد مدى وكيف تستقيم أمر نظرية تدعى أنها علمية حين تنكر وجود الحق تبارك وتعالى وكيف يمكن أن تعلل وجود العالم ، وكيف يمكن القول مع الوجودية بأن العالم وجد بلا داع ويمضى لغير غاية ونحن نقرأ قول الله تبارك وتعالى **(أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) .**

ولا ريب أن الفرد هو موضـــوع هام شـــغل الفلاسفة وأصحاب الأيديولوجيات ولكن أهم ما هنالك : هو مسئوليته وموقفه من الجماعة ، وتلك هى القضايا التى تتلاعب بها أهواء الفكر البشرى ، وحين تراه سيدا مؤلها ، وحين تراه حيوانا وحين تراه ترسا فى آلة ، وقد براه الاسلام من ذلك كله ووضعه فى موضعه الحق ، واعترف برغائبـــه المادية وأشواقه الروحية جميعا ، فليس الفرد مؤلها ولا معبودا ولا حيوانا ولكنه من أعظم ما خلق الله لو استقام على الطريقة واهتدى الى الحق ، وقد حدد الاســـلام موقفه من ربه ومن الكون ومن المجتمع وحدد مسئوليته ورسالته وجزاءه ،

وعلاقته بالدنيـــا وبالآخرة وبالوجود كله ، على نحو تعجز كل الفلسفات والمذاهب عن الوصول اليه ، أما الغرب فانه حين انكر الالوهية والدين والوحى فانه ذهب وراء الأهواء كل مذهب فى سبيل تشكيل مفهوم للحياة وللانسان .

ولكن الاسلام وهو وحى الله ورسالة السماء كان أصدق من كل هــذه المذاهب والأيديولوجيات وأقربها الى الفطرة وأبعدها عن الغلو والاضطراب ، ومن ثم فهو أصلح المناهج للبشرية على مدى العصور وعلى اختلاف البيئات لأنه قدم الشريعة المحكمة الخالدة القائمة على اطار ثابت مع القدرة على التغير والحركة والتطور ، رابطا بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة .

ولقد سقطت الوجودية وتجاوزها الزمن لأنهـــا خالفت الفطرة ، ولم تستطع أن ترضى العقل ، ولم تعترف بالروح ، فهى تجعل الانسان فى عزلة عن الجماعة أنانيا غاية الأنانية أولا وتجعله يستطيب ابرز القبيح من جوانب الطبيعة الانسانية ثانيا ، وتجعله يفصل نفسه عن ربه وعن السماء وعن الدين ويتنكر لكل القيم الخالدة ثالثا ولأنه يؤوس قنوط قلق ممزق لا يجد قرارة ولا راحة ولا طمأنينة ولا أمنه النفسى ، بينما الاسلام هو ما عكس هذا كله ، نورا وهدى .

* * *

ثالثـا ــ دور كايم :

منذ سنوات ومن خلال الضباب المخيم على آفاق الفكر الاسلامى ارتفعت صيحة صاعقة ثم سرعان ما انطفأت وساد الصمت بعدها . كان صاحب هذه الصيحة هو أستاذ العلوم الاجتماعية فى احدى الجامعات العربية ، قال الدكتور عاطف غيث : ان علم الاجتماع الذى يدرس بجامعاتنا بصورته ومادته الحاليـــة أداة انهزامية فى مجتمعنا العربى . ان مدعم علم الاجتماع الذى نعتمد على نظرياته فى جامعاتنا هو العـــالم اليهودى الفرنسى اميل دوركايم الذى حاول مع من ردد آراءه أمثال ((ماكس فيبر)) الألمانى ((وظفر)) الايطالى ، أن يطمسوا فعالية الانسان ويجعلوه عبدا لمصير مجهول ، وحاولوا كذلك أن يميعوا حركة التاريخ ويبعدوا الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لا يتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذى لابد منه وهو ضرورة تحرير المجتمع الانسانى من القيود التى كبلته قرونا عديدة .

ودوركايم هو صاحب الأفكار التى تعوق النزعات الحرة كلها ويقف حائلا أمام تخطيط الانسان لمستقبله .

ان خطر علم الاجتماع يتضح عندما تعـــلم أن موضوعه الرئيسى هو دراسة بناء المجتمع وعوامل تغييره وهو ما نعتبره أساس معركة النضال للخلاص من الثغرات التى خلفهـــا الاستغلال والاستعمار فى المجتمع العربى .

ولا شك أن علم الاجتماع الذى يدرس الآن فى جامعاتنا بوضعه الحالى عاجز تماما عن متابعة التغيرات فهما أو تقويما ولذلك فان بناء قيم جديدة وصناعة جيـل جديد ، لا يمكن أن يحظى من علم الاجتماع بوضعه الحـالى بادنى اهتمام وهو بوضعه الحالى أداة لتحويل الأنظار عن أوجه النضال الاجتماعى والاقتصادى . ولذلك فاننا نعتبر نقله دون تغيير الى بلادنا يعتبر أداة انهزامية يجب القضاء عليها .

هـذه هى الصيحة التى استعلنت منـذ عشر سنوات ثم سرعان ما انطوت : صيحة لا تقف عند علم الاجتماع وحده ولكنها ستتصل بعدد من العلوم التى ندرسـها فى جامعاتنا وهى فى ذاتها علوم وافدة ونظريات اجنبية صممت على مقاييس مجتمعات أخرى فى الشرق أو فى الغرب وسيطر عليهـا فلاسفة لهم اتجاهات واضـحة واهـداف صريحة ويجرون فى موكب « الصهيونيـة واهـداف بروتوكولات صـهيون التلمودية » وليس هذا شأن المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى يقودها دوركايم وليفى بريل وغيره من اليهود ولكن الأمر يتصل بعلوم الأخلاق والنفس والتربية والعلوم السياسية والتاريخ والفن ... ففى كل مجالات هذه العلوم تجد نظريات وافدة تقتضى الأمانة بعلمائنا أن يعرضوها على أنها ليست العلم العالمى كما يدعون ويقولون أو أنها نتائج أعلى العقول البشرية فليس الأمر كذلك فى الحقيقة ، ولكنهـا نظريات

وفروض وضعها مجموعة من الباحثين والفلاسفة فى ضوء عاملين خطيرين :

العامل الأول : عامل البيئة الغربية التى صنعتها عوامل ثقافية ودينية واجتماعية معينة .

والعامل الثانى : عامل العصر المعين الذى يقع فى منتصف القرن العشرين الميلادى .

وفيما قبل ذلك بعقد أو عقدين من الزمان كانت هناك مذاهب أخرى وحلقات متصلة بذلك الزمن ، كما كانت هناك مذاهب فلسفية مختلفة ولا تزال فى المانيا لها طابعها الوجودى وفى فرنسا لها طابعهـا الماركسى وفى أمريكا لها طابعهـا البرجماتى وهكذا .

فكيف يصح فى الأذهان أن تنقل هذه المذاهب الى مجتمع كالمجتمع العربى الاسـلامى الذى يعيش عقيـدته وآدابه واخلاقه ومفاهيمه وطباعاته الخاصة التى ما زالت تستمد جذورها من القرآن والتوحيد والشريعة الاسلامية ، بالرغم من مرحلة الاضطراب التى فرضتها ظروف الاستعمار والغزو الثقافى ، كيف يمكن أن ننقل هذه المناهج فتدرس فى الجامعات على أنها علوم مقررة وان فروضها ونظرياتها تعلم على أنها حقائق نهائية .

وكيف يمكن لمجتمع ناهض مختلف عن المجتمعات الغربية التى استكملت وجودها ، وتعيش الآن مرحلة الرفاهية والاستهلاك وقد وضعت نظرياتها فى ظل هذه الأوضاع كيف يمكن ان تطابق هذه النظريات مجتمعنا وكيف تستطيع ان تعطيه ، وهذه العقلية العربية الاسلامية التى تقوم على مفهوم الايمان بالله وارادة الفرد والالتزام الأخلاقى والمسئولية والجزاء كيف يستطيع أن يتعامل مع نظريات تقوم على الجبرية وتحاول أن تصور المجتمع بصورة الصراع وأن تقيم التناقضات اساسا بينما تقوم المجتمعات العربية الاسلامية على التقاء العناصر والأجزاء فى كل متكامل ، دون صراع بينها أو جبرية .

ذلك هو الخطر الذى يصل الينا ، لا عن طريق الفكر المفتوح حتى نناقشه ونكشف عن زيفه ، ولكن عن طريق الجامعة فاذا هو من المسلمات فى عقول أبنائنا بينما هو فى الحقيقة ليس كذلك فى نظر اصحابه الذين طالما غيروا فى نظرياتهم بدلوا بالاضافة والحذف ، ولا يزالوا يغيرون ، لأن الزمن لا يدعهم فى راحة ، ان ما ذهب اليه — دوركايم — فى مذهبه الاجتماعى الذى يضمه كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ليس الا نظرية وفرضية بناها عقله فى ضوء تحديات كثيرة منها التحديات العامة ومنها التحديات الخاصة ولكل فيلسوف من ظروفه الخاصة ظل وأثر على آرائه لا ريب فى ذلك . أما التحديات العامة

فذلك أن دوركايم هو ربيب الثقافة الماركسية أو المذهب الماركسى والنظرية المادية أصلا ، ومفهومه معارض تماما لكل القيم الأساسية التى جاءت بها الفطرة ، أو صاغتها الأديان فى منهجها الربانى القائم على الفطرة ، وهو فى كل دعاواه يأخذ الطرف الثانى المعارض فاذا أعلنت الأديان أن الدين فطرة وان الأسرة فطرة أعلن هو عكس ذلك تماما فقال ان الجريمة هى الفطرة ، ولكن الدين والأسرة ليسا من الفطرة فى شىء ...

وهو فى كل ما يدعو اليه تابع للمدرسة المادية التى بدأها سنبسر وكانت وهو تابع فى نفس الوقت للمدرسة التى بدأها ماركس فى التفسير المادى للتاريخ ، فهو واحد من كبار الدعاة الى انكار الفرد ومسئوليته ودوره واعلاء شأن الظاهرة الاجتماعية وتحميلها كل النتائج على النحو الذى يؤدى الى اخطر الآثار التى يترتب عليها انكار مسئولية الفرد والتزامه الأخلاقى وجزاؤه .

ومن شأن هذا ان يبرر للأفراد تصرفاتهم ويحررهم من التبعية ويلقيها كلها على المجتمع ولا ريب أن هذا الاتجاه معارض معارضة جوهرية لمفهوم الدين الحق ولقاعدة أساسية من قواعد الايمان بالله التى يقوم عليها المجتمع العربى الاسلامى .

يقول دوركايم : ان الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية ، وانما القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية وكلها عبث لا قيمة لها ..

وهو فى هـــذا يحاول ارساء قاعدة فاســـدة تتعارض مع الفطرة البشرية ترمى الى القول بأن التحلل والانحلال أمر حتمى ..

وأهم ما يريد دوركايم أن يصل اليه هو :

أولا : اقامة فكرة التطور المطلق التى تلغى مفهوم الاسلام القائم على اطار من الثوابت فى داخله حركة وتغيير .

ثانيـــا : الدعوة الى فكرة القهر الخارجى الذى يقهر الفرد على غير رغبـــة منه وذلك ليلغى مفهوم الاســـلام القـــائم على الارادة الفردية والمسئوليـــة الفردية والجزاء الفردى .

ثالثـــا : تفسير الانسان وفق مذاهب المادة وعالم الحيوان وذلك فى مواجهـــة مفهوم الاســـلام الذى يكرم الانســـان ويجعـــل له منهجـــا خاصـــا لفهمــــه يختلف عن المـــادة وعن الحيوان .

رابعـــا : انكاره القواعد الخلقية وثبات القيم الأخلاقية وهو ما يقرره الاسلام .

خامسا : انكار فطرة الدين والأسرة والزواج وفى ذلك معارضة لأصول اصيلة من النظام الانسانى .

سادسا : لا يعترف دوركايم بأن الحياة البشرية يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى وانما يفسرها العقل الجمعى وهذا الرأى معارض مع مفهوم الاسلام الذى يقرر أن كل انسان مسئول عن نفسه مسئولية خاصة . وأن تعلله بفساد المجتمع أو اضطرابه لا ينجيه من الجزاء .

سابعا : نحى القداسة عن الدين والأخلاق والأسرة والتشكيك فى قيمها وهو يدعو الى تحطيم الدين لأنه قد يعوق التطور ، وليس فطرة انسانيـــة وتحطيم قيود الأخــلاق لأنها لا وجود لها فى ذاتها .

هذه هى النظرة المادية الخالصة التى تقوم عليها مفاهيم علم الاجتمــاع كما دعا اليــه دوركايم وكما يدرس الآن فى الجامعات العربيــة حيث ينشىء اجيــالا تقوم عقليتها على أساس النظرة المادية الخالصة الى الانسان ، وحيث ننظر بسخرية الى الأخلاق والدين والأسرة ، وترى أن هذا الذى تدرسه هو الحقائق العلمية والمسلمات التى لا مرد لهــا ، بينما هى لا تعرف وجه الحقيقة بالنسبة لمفهوم الاسلام الحق الذى هو فطرة الله التى فطر الانسان عليها ، والمفهوم الأصيل الذى يقرر أن الانسان روح وجسد وعقل وقلب وانه لا يمكن

تفسيره عن طريق المذاهب المادية التى تعامله كالحيوان أو التجريبية التى تعامله كالمادة الصماء .

ولا ريب ان نظرية دوركايم فى علم الاجتماع حين تلتقى بنظرية فرويد فى علم النفس ونظرية ماركس فى الاقتصاد من شأنها ان تشكل انسانا مضطربا مزعزع الوجدان ، واليهود الثلاثة هم القادة المسيطرون على هذا الفكر الغربى الذى يفرض الآن على انه هو الفكر العالمى . بينما تختفى مفاهيم الاسلام فى النفس والأخلاق والاجتماع وتتضاءل ولا تعرض حتى على انها وجهة نظر اخرى بل لعل شبابنا فى الجامعات يرى انه ليس هناك مفهوم اسلامى هو أعمق وأصدق واكثر اصالة من هذا المفهوم الذى يقوم عليه مجتمعات الغرب والذى به وصلت الى الأزمة الطاحنة المستحكمة التى يعانيها الآن من تخلخل المجتمع الى اضطراب الأسرة الى تمزق النفس البشرية .

وبينما يجد المسلمون عندهم منهجا صادقا متكاملا تترقبه البشرية كلها وتتطلع اليه ، ويجد كل مطلع شمس من يؤمن به من اهل الغرب ، فان العرب والمسلمين محجوبون تماما عن منهجهم هذا فى مدارسهم وجامعاتهم ، ولقد كان من الضرورى ان يكون للعرب والمسلمين منهجهم الاجتماعى الأصيل المستمر من فكرهم وعقائدهم وبيئتهم ، ومنهم خرج مؤسس علم الاجتماع الذى يعترف الغربيون بريادته واثره وهذا ما قاله الدكتور غيث ما هى الحقيقة التى تختفى وراء

ترك علمائنا لواجب البحث والتالف فى علم كعلم الاجتماع الذى نشأ عندنا وترديد النظريات الأجنبية بكل علاتهـا . لقد كان من الضرورى ان يقوم علم اجتماع عربى اسلامى فى بلادنا على أساس يختلف عما علمه الغرب لأبنائنا وهناك فارق بين منطق العلم وحقائق العلم « ان منطق العلم ومنهجه لا يختلف عليه اثنان مهما كان لونهما وايديولوجيتهما ولكن تفسير الحقـائق وابراز بعضـها واغفال بعضها الآخر ، واستخراج نتائج متميزة هو الذى يجب ان نتنبه اليه تماما » .

ان اخطر ما يفرضه منهج دوركايم فى علم الاجتمـاع هو « ان ارادة الانسان ليست بالانطلاق الذى يمكنه من تغيير المجتمع وان الأفراد وهم ورثة النظـام الاجتماعى ليسوا الا صورا متشابهة متكررة كما ان اطار الدراسة فيه يدور حول مجموعة من المسلمات » هذه المسلمات الباطلة الزائفة التى لا يقرها الفكر الاسلامى .

ويقول الدكتور غيث : ان الرد على دوركايم ومن قبله أوجست كونت يقوم على أساس انهما فى تفسيرهما للعوامل الموجة لحركة التـاريخ والمجتمع الانسانى يغفلان عمـدا الصراع الذى خاضه الانسان المغلوب على أمره ضد طغيان العودية .

لا ريب ان دوركايم ومعه زملاؤه اليهود ، قد صدروا فى مذهبهم عن هـدف واضح وجريا فى نطاق واضح بداه

ماركس ، وأكمل شطره فرويد ، وجاء دوركايم ليحكم الحلقة ولا ننسى فى هـذا ما كتبه الأسـتاذ محمد قطب فى كتابه « التطور والثبات فى حياة البشرية » فانه بلا ريب قد كشف وجوها كثيرة وخلفات خافية مما يريده مفسرو البروتوكولات من أهداف وغايات بالبشرية . وليس هناك انتصار أكبر من أن نظرياتهم وفروضهم تدرس الآن على أنها (حقائق العلم) والجديد فى هذا الأمر ان الجزائر قد حاولت فى مؤتمر علم الاجتماع الذى عقد بها عام ١٩٧٤ أن تدعو الى انشاء علم اجتماع عربى والتحرر من منهج علم الاجتماع الوافد الاستعمارى الطابع وقد دعا عدد من علماء الجزائر الى :

« الرجوع الى الأصالة »

باعتباره أحد الحلول المطروحة الآن ...

غير أن الأمر ما زال فى حاجة الى نظرة اسلامية تكشف عن جوهر مفهوم علم الاجتماع الاسلامى ولذلك فانى أتوجه الى الدكتور على عبد الواحد وافى راجيـا أن يدلى بدلوه فى هذه القضية التى تعد احدى معضلات الفكر الاسلامى المعاصر وبوصفه من رجال الفكر الاسلامى وممن درسوا علم الاجتماع الفرنسى .

ان التحديات التى تواجه المسلمين اليوم عن طريق العلوم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية هى من أخطر التحـديات لأنها تمثل فى الحقيقة يد الصهيونية التلمودية الطائلة فى داخل

عقولنا وفكرنا ومجتمعنا واننا فى حاجة الى أن نتحرر عقليا من هذه المدرسة التى صاغتها بروتوكولات صهيون وغزت بها الفكر العربى المعاصر الذى ما زال يقاوم ونحن أولى بأن نكسر هذه القيود ونحرر فكرنا ومجتمعنا من مذاهب هدامة أثبتت فشلها وزيفها فى بيئاتها وما أحق أن نكشف عن مفاهيمنا الأصيلة وان ندعو الانسانية اليها فانها ستتطلع الآن الى ضوء كاشف لن يأتيها الا من عالم الاســــلام .

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت، ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٩/١٩٧٩
الترقيم الدولى ٤ — ٣٢ — ٧٣١٨ — ٩٧٧